

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الثالثة - العدد الثاني عشر - شتاء ١٣٩٢ش / كانون الأول ٢٠١٣م

صص ٢١٣ - ١٩٧

التشاؤم في شعر أبي العلاء المعري وعبدالرحمن شكري

هادى نظرى منظم*

خاطرة أحمدى**

الملخص

التشاؤم حالة نفسية ذات أسباب مختلفة كاليأس، وعجز الإنسان عن تحقق مطامحه وآماله، ومعاناة مشاكل نفسية وجسدية، وترديّة الأوضاع الاجتماعية والسياسية في المجتمعات الإنسانية و... .
والتشاؤم ظلّ وما يزال شائعاً بين الشعراء والأدباء في مختلف العصور؛ فهناك على سبيل المثال أبو العلاء المعريّ الذي اصطبغ شعره بالتشاؤم بسبب الظروف المحيطة بحياته؛ وهناك أيضاً عبدالرحمن شكري في العصر الحديث، الذي اتّجه في شعره نحو التشاؤم متأثراً بالأوضاع الاجتماعية في عصره، وبنزعتة الرومانسية، ومزاجه الحزين، ونتيجة لقراءته في شعر الشعراء المتشائمين كالمعري وابن الرومي والحيام. يحاول هذا المقال من خلال المنهج الوصفي - التحليلي أن يرصد مظاهر التشاؤم في شعر أبي العلاء المعري وعبدالرحمن شكري، وأن يعالج المؤثرات العامّة والخاصّة في اتجاه الشعارين نحو التشاؤم.

الكلمات الدليلية: الأدب العربي، أبو العلاء المعري، عبدالرحمن شكري، التشاؤم.

hadi.nazari@modares.ac.ir

*. أستاذ مساعد بجامعة تربيت مدرس في طهران، إيران.

** خريجة جامعة تربيت مدرس في طهران، إيران.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. صلاح الدين عبدي

تاريخ القبول: ١٣٩٢/١١/٩

تاريخ الوصول: ١٣٩٢/٣/١٨

المقدمة

يُعدّ الأدب أهمّ أشكال التعبير الإنساني عن العواطف والخواطر الإنسانية، فهو: «فنّ يهدف إلى الإمتاع والتثقيف، بعيداً عن النفع المادّي الزائل؛ والأدب الحيّ هو الذى يعيد تصوير الحياة، لا كما هي، بل كما يراها الأديب». (بطرس، ٢٠٠٥م: ٥) والشعر هو التعبير عن الأحاسيس والعواطف تعبيراً جميلاً يؤثّر في النفوس: «ليس الشعر لغواً تهذى به القرائح؛ لو كان كذلك لما كان له هذا الشأن في حياة الناس، الشعر حقيقة الحقائق ولبّ اللباب والجوهر الصميم من كلّ ما له ظاهر في متناول الحواس والعقول، وهو ترجمان النفس والناقل الأمين عن لسانها، والألفاظ هي رموز بين الألسنة والآذان.» (شوشة، ١٩٨٥م: ١٦)

وقد واجه الإنسان على مرّ العصور الحياة وما فيها من خيرٍ وشرٍّ وأملٍ ويأسٍ وفرحٍ وألمٍ، حيث نلاحظ أنّ «النفس البشرية مفضّرة على حب الخير، وبغض الشر، ولذلك تجدها تفرح وتستبشر إذا ما سمعت ما يسرّها، وتحنن وتنفر إذا سمعت ما يسوؤها.» (السميري، ٢٠٠٩م: ٢) فبرزت هذه المواجهة في نزعتين أساسيتين تجاه الحياة: النزعة التشاؤمية والنزعة التفاؤلية، وهناك أحياناً توجد نزعة بين بين، لا تشاؤمية بحتة ولا تفاؤلية خالصة، لكن كلامنا هنا يدور حول التشاؤم، وهو صراع ذاتي أو حالة نفسية في الإنسان، ينتج عن القلق والخوف تجاه الأزمات والأحداث، أو تجاه قضايا فكرية أو سياسية أو اجتماعية، فيصاب المرء بالسأم والاضطراب والتوتر. الإنسان المتشائم يفقد التوازن ويشعر بانعدام الأمن والأمان والفرح والسعادة.

التشاؤم ظلّ وما يزال شائعاً في جميع الآداب وعند الشعوب بأسرها، لكن تختلف دواعي هذه الظاهرة ومظاهرها من عصر إلى آخر؛ فهو على سبيل المثال موجود في العصر الجاهلي عند شعراء كطرفة بن العبد مثلاً، وتصطبغ فلسفته «بصبغة اليأس لسرعة زوال الحياة والمحرص على مطاردة الزمن الهارب باللذات الممتعة، يؤيد ذلك ألم من الحياة ومما ذاقه من قسوة قومه ومن تشرده وشقائه.» (الفاخوري، ١٣٧٣ش: ١٠٥) ثم ينتشر التشاؤم في العصر العباسي ويتخذ ألوان ومظاهر عند البعض من أمثال ابن الرومي والمنتبي وأبي العلاء المعري... نظراً لأسباب خارجية وذاتية فيهم، كما

يستفيض فى العصر الحديث ويظهر عند الكثيرين من أمثال نازك الملائكة، وبدر شاكر السياب، وصلاح عبدالصبور وعبدالرحمن شكرى وغيرهم من الشعراء والأدباء نتيجة لأمزجة الشعراء الحزينة وظروفهم الخاصة ولتأثرهم بالقضايا الاجتماعية المأزومة وباتجاهات فلسفية وأدبية كالرومانسية و... .

وهناك علاقة مباشرة بين الأزمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وبين التشاؤم عند الشعراء. فالأدب، شعره ونثره، قد يكون صورة لما يجرى فى المجتمع، والشاعر ذو شعور مرهف وإحساس عميق وهو يتأثر بالأوضاع الاجتماعية، كما نلاحظ فى العصر العباسى والعصر الحديث، حيث اصطبغ الأدب فى بعض الأحيان بالحزن والتشاؤم، وبخاصة عند الشاعر والأديب العباسى الشهير أبى العلاء المعرى وعند الشاعر المصرى الحديث عبدالرحمن شكرى. يقول شوقى ضيف: «قد يصطبغ شعر شاعر بصبغة خاصة كالتفاؤل أو التشاؤم، والتشاؤم ينتج عن ظروف الشاعر الخاصة وتفكراته الحزينة. ومن الذين اشتهروا فى الأدب العربى بالتشاؤم أبو العلاء المعرى "من الأدب القديم" وعبدالرحمن شكرى "فى الأدب الحديث".» (ضيف، ١٩٥٩م: ١١١)

وإلى جانب العوامل الاجتماعية والسياسية نلاحظ أسباباً أخرى كالعاهات الجسدية (العمى، العرج و...) والهواجس النفسية كالتفكير والتأمل فى الموت والفناء والزوال، والفقر والمنزلة الاجتماعية المتردبة للأديب وغيره. والإنسان كائن يتفكر ويتأمل، ويسوقه تفكره نحو ألوان من الحزن والأسى وضروب من اليأس والقنوط وبالتالي التشاؤم؛ وهو بالتالى يبتّ أحاسيسه وعواطفه فى الشعر والأدب ويشكو المصائب والأزمات والآلام بوساطة اللغة.

وهذا المقال باعتماد المنهج الوصفى - التحليلى يحاول الإجابة عن الأسئلة

التالية:

١. ما هو التشاؤم؟
٢. ما هى دواعى التشاؤم وتداعياته فى حياة المعرى وشكرى؟
٣. ما هى أهم مظاهر التشاؤم فى شعر الشعارين؟

التشاؤم لغةً واصطلاحاً

التشاؤم لغة من مادة شأم، والشؤم: خلاف اليمن، وشأم الرجل قومه، أى جرّ عليهم الشؤم فهو شائم، والمتشائم: المتطير، من كان سيئ الظنّ بالحياة. أنشد سيبويه للأحوص: «مَشَائِمٌ ليسوا مُصلِحين عَشيرةٌ ولا ناعب إلاّ بشؤم غرابها» (ابن منظور، ٢٠٠٣م: ذيل شأم)

وفى قاموس المحيط: التشاؤم: التطير، والمتشائم: من يسيئ الظن بالحياة، والشؤم يعنى الشر، وشأمهم شؤماً: جرّ عليهم الشؤم. وفى التنزيل العزيز قال تعالى: «هُم أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» (الفيروزآبادى، لاتا: ٥٧٤/٤)

والتشاؤم اصطلاحاً: «استعداد شخصى أو سمة كامنة داخل الفرد تؤدى به إلى التوقع السلبي للأحداث.» (اليجوفى والأنصارى، ٢٠٠٥م: ٢١٣) كما يعرفه سليكمان "Seligman" بأنه «إدراك الفرد للأشياء والظواهر من حوله بطريقة سلبية؛ فالفرد المتشائم يرى الفشل بأنه مأساة لا يمكن الخروج منها. وهو عادة لا يستطيع وضع حلول ناجعة لمشاكله اليومية، مما يجعله دائم السؤال وفى حالة من التردد والشك.» (Seligman, 1994: 18)

خلفية البحث

قد كثرت الدراسات الأدبية والنقدية التى تناولت أبا العلاء المعرى وعبدالرحمن شكرى، منها: شوقى ضيف (٢٠٠٣م) فى كتاب دراسات فى الشعر العربى المعاصر يتناول التشاؤم لدى شكرى بطريقة مختصرة ناقدة، والحق أنّه كتب كثيراً حول شكرى وتشاؤمه.

أحمد غراب (٢٠٠٧م) فى كتاب تحت عنوان عبدالرحمن شكرى. وفيه تناول الشاعر من جوانب عديدة، أحدها الجانب النفسى، ويعالج التشاؤم، والمرأة والموت فى شعره. أنس داود (٢٠٠٧م) فى كتاب عبدالرحمن شكرى ونظرات فى شعره. والكتاب يتناول أهمّ القضايا فى حياة شكرى، ويتكلم عن خمس قصائد للشاعر.

ثريا بنت بشير بن محمد الكعكي (٢٠٠٩م) في رسالة باسم التشاؤم عند عبدالرحمن شكري، فالكاتبة تدرس وتتقد التشاؤم عند شكري وتعتقد بأن التشاؤم عنده ليس بمثابة مرض نفسى يعانى الإنسان منه، ولكن للعوامل السياسية والاجتماعية والدينية أثر كبير في بروز هذه الحالة عند شكري.

حسين جمعة (٢٠١١م) في رسالة باسم الاغتراب في حياة المعري، يتطرق فيها إلى مفهوم الاغتراب ويعرفه بأنه هو التجاذب النفسى بين الرضا والرفض، بين الحرية والقهر، بين الانفتاح والانغلاق، وبين الرجاء والإحباط، ويرى أن الغربة هي التي يفقد الإنسان حرّيته واستقلاله الذاتى بتأثير الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والدينية و...، ثم يقوم بذكر الألفاظ الدالة على الاغتراب في الفصول والغايات وسائر مصنفات المعري الشعرية والنثرية.

وهناك في الأدب الفارسي:

نرجس قنديلزاده (١٣٨٠) في رسالة بعنوان: مرگ وزندگی در اشعار أبي العلاء المعري "الموت والحياة في أشعار أبي العلاء المعري": تتحدث الرسالة عن حياة المعري وأسباب تشاؤمه، ثم تقوم بدراسة بعض أشعاره.

وإنسية خزعلي (١٣٨٥) في مقال بعنوان: "الحيام والمعري بين التشاؤم والتفاؤل" والمقال مقارنة بين الحيام والمعري وفيه حديث عن التشاؤم المطلق والنسبي في حياة الشعارين؛ وترى الباحثة أن الأمر يتجاوز دائرة الإنصاف إذا أطلقنا مصطلح المتشائم على شاعر، بل الأحرى أن نسمي بعض الأشعار، أشعار الشكوى والنقمة على الوجود بدل التشاؤم.

ولياميني لارى وسيد فضلا الله ميرقادري (١٣٨٨) في مقالة باسم "بررسی تطبیقی افکار و عقاید أبو العلاء وخيام" (دراسة مقارنة في أفكار وآراء أبي العلاء والحيام).

ومحمد خاقاني وآخرون (١٣٨٩) في مقالة بعنوان "جبر واختيار در جهان بینی حافظ و معری" (الجبر والاختيار في رؤية حافظ والمعري) يدرس الباحثون الجبر والاختيار عند المعري وحافظ ويشيرون إلى اهتمام الشعارين بهاتين القضيتين

ويعتبرون الجبر أحد أسباب التشاؤم عند المعري.

وجميل جعفرى وشرافت كرمي (١٣٨٩) فى مقالة تحت عنوان: "عبدالرحمن شكرى ورباعيات خيام". يعتقد الباحثان أنّ ثمة علاقة بين أفكار خيام وعبد الرحمن شكرى، ومن ثمّ يشيران إلى أنّ شكرى قام بترجمة عدة رباعيات من خيام وتأثر بهذه الأبيات، كما يعتقد أنّ لأشعار خيام دوراً فى تعرف شكرى على آداب الشعوب الأخرى. تجدر الإشارة أنّ الباحثين المذكورين تحدثا فى الأغلب عن المعري وشكرى بصورة عامة؛ ونظراً لعدم وجود دراسة سابقة توازن بين المعري وشكرى فى اتجاههما نحو التشاؤم نرى أنّ هذا المقال يحوى فى طياته أشياء جديدة ومفيدة.

التشاؤم ودواعيه عند المعري

«كان المعري ذا خلق ذميم، قصير القامة، نحيف الجسم، واسع الجبهة، مشوّه الوجه بآثار الجُدري والعمى، غير أنّ ذلك الثوب الرثّ كان يحوى نفساً كبيرة.» (الفاخورى، ١٣٧٧ش: ٦٨٣) «وكان منذ حدائته يسىء الظنّ بالناس، لا ينظر إليهم نظرة الرضى والطمأنينة، ويميل إلى الانقباض عنهم؛ وحُبّبت إليه العزلة.» (الحلبى، ٢٠٠٧م: ١٧) «وهو لما رجع إلى المعرة لزم بيته، فلم يخرج منه وسمّى نفسه رهين المحبسين، يعنى حبس نفسه فى المنزل وترك الخروج عنه، وحبسه عن النظر إلى الدنيا بالعمى.» (الحموى، ١٩٨٠م: ١٢٤) كانت حياة المعري كلها مجاهدة وشقاء ومعاناة وكانت تأملاً فى الحياة والموت.

لتشاؤم المعري عدة دواعٍ، منها أنّه كان يعانى من فقد بصره؛ فقد «أصيب المعري بالجُدري بعد أربعة أعوام من مولده فذهب بصره، ولم يعرف من الألوان إلّا اللون الأحمر وهو لون الثوب الذى لبسه يوم أصابه الداء.» (أيوب، ١٩٩٠م: ٢٠٣) وغنى عن الشرح أنّ هذا العامل الرئيس جعله كبير التشاؤم. يضاف إلى ذلك موت والديه وفقره الشديد. وقد ملأ أبوالعلاء كتابه اللزوميات بهذا التشاؤم الواسع من الدنيا ووصف الحياة بأنّها دار الآلام والعذاب وقد يستعرض الحياة من جميع جوانبها وينقدها نقداً ساخراً فى جراءة وصراحة. يضاف إلى ذلك أنّه عاش فى زمن ملئ بالفساد بكلّ أشكاله

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ فالعصر العباسى «ينقسم من حيث السياسة إلى قسمين: عصر القوّة وعصر الضعف، وكان أبو العلاء يعيش فى عصر الضعف والفساد.» (حسين، ١٩٥١م: ٣٥-٧٧) كان المعرى يرى أنّ حياة الإنسان كلّها بيد القدر وهو المسيطر على كلّ شئ ولا يستطيع الإنسان الخلاص منها وهو سيموت لا محالة، كما مات من سببه. كلّ هذه العوامل جعلت الشاعر متشائماً شديداً التشاؤم بحيث لا يرى فى الحياة أىّ تفاؤل وهو ما زال يدافع عن تشاؤمه كما يقول طه حسين: «كنت أحدث أبا العلاء بأنّ تشاؤمه لا مصدر له فى حقيقة الأمر إلاّ العجز عن ذوق الحياة والقصور عن الشعور بما يمكن أن يكون فيها من جمال وبهجة ومن نعيم ولذة ويقول أبو العلاء إنك ترضى عمّا لا تعرف وتعجب بما لا ترى.» (حسين، ١٩٧٣م: ١٣-١٤)

التشاؤم ودواعيه عند شكرى

قد تحدث الكثير عن التشاؤم لدى عبدالرحمن شكرى وأنّ شعره توشّح بالثوب الأسود. يقول شوقى ضيف: «لعل مصر لم تعرف فى عصورها المختلفة شاعراً متشائماً ضاق بكل ما حوله حتى بنفسه كما عرفت فى عبدالرحمن شكرى، وقد نشر سبعة دواوين بدأ بأولها، وانتهى بآخرها (١٩١٩م)، وكلها تصور لنا قصة سوداء من التشاؤم الحزين الممرض.» (ضيف، لا تا: ١٠٩)

ومن دواعى التشاؤم عند الشاعر: «إحساس يقوده التفكير، الخيال الخصب، أوضاع الأمة، الرومانسية وتأثر شكرى بها، الإخفاق فى تحقيق الأهداف والوصول إلى الآمال.» (الكعكى، ٢٠٠٩م: ٦٦)

إنّ شكرى يسعى للسعادة وبلوغ الآمال، لكنّه حين يطلب تحقيقها لا يرضى، بل يطلب دائماً المزيد، ولعدم تحقق المراد تذوّب لذة السعادة، فيشعر باليأس، فتضطرب حياته، كما أنّه عاش فى «عصر حافل بالاضطرابات والأحداث الكبرى فى تاريخ مصر والعالم وخاصة المدة ما بين الحربين العالميتين التى اصطلت بناهما، كما عانت مصر كثيراً من ويلاتها وما نتج عنها من آثار سيئة اجتماعية وثقافية فى تاريخنا الحديث.» (الشطى، ١٩٩٤م: ١٧٥) والحق أنّ شكرى «قد عاش فى فترة قلقه من حياة

مصر، اختلّطت في أثنائها الآراء والمذاهب السياسية وشاعت خلالها روح التمزّق الاجتماعي. «(عيد، ٢٠٠٣م: ١١١) وكانت مصر في هذه المرحلة السوداوية من حياتها «ترى قهر الاستعمار وقيوده وأغلاله على نفسها، وكانت لمصر ظروف سيئة في ذاك الزمان. يقرّر شكري في فصل من اعترافاته بأنّه قد طغت موجات اليأس طغيانا جارفا في تلك الأيام السود، أيام الاحتلال على جميع الشباب وجميع النفوس، وهو طغيان قد فلّ العزائم وثبّط الهمم وأمات الآمال والقلوب، فلم يعد الشباب يستطيعون الإقدام والعزم الصادق والهمّ البعيد، بل أصبحوا فريسة الإحجام والتردد والخنوع.» (ضيف، ١٩٥٩م: ١١٢)

وقد كان شكري من أعلام المدرسة الرومانسية في الأدب العربي. ومن خصائص هذه المدرسة: «غلبة الكآبة ومشاعر الحزن والصراع النفسي الدرامي وشيوع نغمات البكاء واليأس والانفصال عن المجتمع والشعور بهشاشة الحياة ودنوّ شبح الموت، لكنه الموت الحنون المخلص لا الموت المخيف.» (الأصفر، ١٩٩٩م: ٤٩) وقد كان الأدباء الرومانسيون «يحملون بتحقيق العالم الوردي ويتحسّرون أسفاً على تلك الأيام الخوالي التي يعيش فيها البشر سعادة في براءة بغير حزن ولا محن.» (الشاذلي، ٢٠٠٦م: ٦٥) وربما كان لأحداث طفولته أعظم الأثر في نفسه الكئيبة؛ فقد «كانت طفولته مهددة بعدم الكفاية والسعادة وعدم الأمان، كما شاهد أنّ أسرته يعانون المرارة ويحملون الهم، ووعي ما وعى من تشرد والده وسجنه، فكانت صدمة لم تغب عن ذاكرته.» (يوسف، لاتا: ٢)

وبالمناسبة نرى لزماً علينا أن نذكر تأثر جماعة الديوان ومن بينهم شكري بالشاعر والمفكر الإيراني الشهير عمر الخيام. يتحدث يوسف بكار عن ذلك بقوله: «عبدالرحمن شكري أقل زميليه "المازني والعقاد" اهتماماً بالخيام والرباعيات، سواء من حيث ما كتّبه عنه أو ما ترجم من الرباعيات وكتب عنها. فأما من حيث الكتابة عن الخيام والرباعيات، فلم أجد له سوى مقال عنوانه "جميل صدقي الزهاوي" نشره في المقطم.» (١٠ آذار، ١٠٣٦: ١١) «وهو يوازن في هذه السطور القليلة بين الزهاوي والخيام موازنة تتمّ عن أنّه قرأ شعريهما. ولست أرتاب في أنّه كتب المقال بعد أن ترجم ثلاث

رباعيات فقط عن ترجمة فيتزجيرالد نشرها أول مرة في ديوانه الثاني "لآلى الأفكار" عام (١٩١٣م).» (بكار، ٢٠٠٤م: ٨٩)
«فالمأمل في شعر شكري يلاحظ بوارق من آراء الخيام ورؤيته تجاه الحياة في ديوانه، وهذا يدل على أنه قد تأثر بالخيام.» (جعفرى وآخرون، ١٣٨٩ش: ٤٧)

مظاهر التشاؤم عند الشعارين

١. الموت

١-١. الموت عند المعري

كثيراً ما يتطرق المعري في أشعاره إلى ظاهرة الموت. وكان المعري ذا عاطفة شديدة، فتأثر بموت أمه تأثراً لا يوصف وأنشد في موتها أشعاراً حزينة، لأنه كان في الطريق إليها ولكنها ماتت دون أن يلتقيا:

«مضت وقد اكهلت، فخلت أنى رضيع ما بلغت مدى الفطام
سألت متى اللقاء فليل حتى يقوم الهامدون من الرجام»

(المعري، ١٤١٠ق: ١٨٦)

ثم جاءته الأيام بنعى أبيه وتكهن الشاعر بحسه أن في جعبة الأيام سهاما أخرى ستصيب قلبها:

«لقد مسخت قلبي وفاتك طائرا فأقسم ألا يستقر على وكن»

(المصدر نفسه: ٣١١)

وعندما توفى أبوه نفذت الطعنة إلى صميم كيانه وفقد هذا الشاب الضريع أبا رحيماً وفقد الصبر والاحتمال:

«كأن دعاء الموت باسمك نكرة فرت كبدى والسُّمُّ ينفذ في أذنى»

(المصدر نفسه: ٨٥)

لا يرى المعري في الحياة أقوى من الموت، فهو القوي الذي لا يُغلب. والإنسان شديد التعلق بالحياة، وطول العمر، والمعري يرى في هذه الرغبة حملاً كبيراً. يقول المعري:

«ومن يكن يومَ الوغَى باسلاً فالموتُ فى حملته أبسلُ
وجُرعةُ الذيفانِ مشروبةٌ وغيرها المستعذبُ السلسلُ»

(المعرى، ١٩٨٨م: ٥٢٣)

وفى رأى المعرى أن العاقل يرجح الموت المريح على عناء الحياة، ويستعد لساعة
الرحيل ويرحب بملك الموت:

«أهلاً بغائلة الردى وإيابها كيما تُسترتنى بفضل ثيابها
دنياك دارٌ إن يكن شهادها عقلاء لا يبكوا على غيابها»

(المصدر نفسه: ٢٠٢)

١-٢. الموت عند شكرى

فى ديوان شكرى نرى كثيراً من الأبيات تدور حول الموت؛ فهو يرحب بالموت
والموت عنده «مهرب من آلام الحياة، وملاذ من متاعبها وأهوالها، وهو دائم الجمع فى
غزله بين فكرة الحب وفكرة الموت.» (أدهم، لاتا: ١٩) يقول شكرى فى تفضيل الموت
على الحياة:

«كلُّ ما كان عزيزاً فهو للنفس تَعَلَّةٌ
ومماتُ المرءِ رُزءٌ وحياةُ المرءِ ذَلَّةٌ»

(شكرى، ١٩٥٨م: ١٠٥)

كما أنه لا يحب الحياة بين أعدائه ويرجح الموت على مثل هذه الحياة:
«ألم يكفِ الحوادثُ أنَّ عيني تُريقُ القلبَ فى ماء البكاء؟
حياتى بين أعدائى مماتٌ وموتى بين أحببى حياةٌ»

(المصدر نفسه: ١١٩)

إنَّ شكرى حزين بسبب الظروف السيئة المسيطرة على حياته؛ ومن ثمَّ يحبَّ الموت
ويعتبره أروح من الحياة:

إذا كان فى موت الفتى راحةٌ له فأبى رجاءٍ فى الحياة يُريده؟
عجبتُ لهذا الدهرِ إمَّا يُعُرُّنا ببعض المنى حتى يُرجى حميده

فهو يفضّل الموت ويعتبره الأمان والخلد المرغوب فيهما:

«هل العيش إلا ساعة ثم ينقضي هل الدهر إلا أشهر وعصور؟
وما الموت إلا الأمان والخلد صنوه ألا إن فقدان الحياة حُبور»
(المصدر نفسه: ٣٤٠)

ويرى أنّ الطريق الوحيد للخلاص من هذا العناء هو الموت:

«إني ولعت بعيش كلّه خدع كما برمت بعيش غير مُقنبل
ما من مجير على هذا الملل سوى موت يُبعد بين النفس والعِلل»
(المصدر نفسه: ٦٧٨)

٢. الشكوى من الزمان

١-٢. الشكوى من الزمان عند المعري

يذمّ المعري الدنيا ويشتكى منها ويكرهها ويرى أنّ الدنيا ليست معتدلة في تصرفاتها، بل إنّها تتصرف عادة بالإفراط أو التفريط، ويقول لو كانت الدنيا عريساً لطلّقتها، لكنّه لا بدّها من العيش في هذه الدنيا الدنية:

«يا أمّ دفر، لحاك الله والدّة منك الإضاعة والتفريط والسرف
لو أنّك العرس أوقعت الطلاق بها لكنك الأم هل لي عنك منصرف؟»
(المعري، ١٩٨٨م: ١٤٨)

ويرى المعري أنّ الدنيا لا خير فيها وأنّ الدهر كالبحر يغرق فيه الناس وأخبارهم:
«من ادعى الخير من قوم، فهم كذب لا خير في هذه الدنيا ولا خير
وسيرة الدهر ما تنفك معجبة كالبحر، تغرق في ضحاحها السير»
(المصدر نفسه: ٥٧٨)

كما يرى أنّ الحياة شرّ والاعتقاد بالخير فيها وفي أهلها ضرب من الوهم:
«توهمت خيراً في الزمان وأهله وكان خيالاً لا يصحّ التوهّم»

(المصدر نفسه: ١٣٧٨)

والمعري يرى أنّ مصائب الدنيا كثيرة، بل الحياة كلّها مصائب ولا يمكن للمرء

التخلص منها، وأهون هذه المصائب عند الإنسان الفطن، الموتُ:
«مصائبُ هذه الدنيا كثيرٌ وأيسرها على الفطن الحِمامُ
مُصابٌ لا تنزه عنه نفسٌ ولا يقضى بمدفعه الزمامُ»
(المصدر نفسه: ١٤٠٣)

٢-٢. الشكوى من الزمان عند شكري

يصرخ شكري ويشتكى من الزمن، إذ إنَّه لا يستطيع الوصول إلى طموحاته؛ ومن
ثمَّ فهو حزين ودموعه تجري دائماً وقد أصابه الهرم، مع أنه شاب، ومن هنا يميل إلى
الموت ويرجِّحه على الحياة المليئة بالآلام:

كفى حزناً إنَّ التطلُّب بالصبر وإنَّ مآقى العين أدمعها تجرى
«لقد لفظتني رحمةُ الله يافعاً فصرتُ كأنِّي في الثمانين من عمري»

(شكري، ١٩٥٨م: ٨٥)

وهو يرى أنَّ الزمن سبب حزنه ويأسه وعدم وصوله إلى آماله وأحلامه؛ ومن هنا
لا يستطيع أن يثني على الدهر ويحمده:

«كيف أثنى على الزمان إذا كان ارتقابُ الآمال من عزماتي»

(المصدر نفسه: ٧١)

وهو يشكو من مرارة العيش وإيقاعه الموجه، وفيها جماعة تقدّمته، رغم أنه كان
يفوقها ذكاءً وكفاءة:

«حياةٌ كدمع العين أمّا مذاقها فمرٌّ وأمّا وقعها فوجيعُ
تقدّمتني في الناس من لم يجارني وأخرني أن الذكاء يروعُ»

(المصدر نفسه: ٤٥٤)

٣. الغربة

٣-١. الغربة عند المعري

والغربة من دوافع الحزن والتشاؤم عند الأدباء، ومنهم المعري؛ يشتكى الشاعر منها

وهو في موطنه:

«متى ما يأتني أجلى بأرضي فناد على الجنازة للغريب
أُكاشِرُ مَنْ لَقِيتُ، على حذارٍ وليس على اعتقادي من غريب»
(المصدر نفسه: ١٨٢)

٣-٢. الغربة عند شكري

يعانى الشاعر، الغربة والوحشة، وكثرة الهموم والأتراح:
«فَقَضَى عَيْشَهُ غَرِيباً عَنِ الْأَهْلِ لِ قَلِيلِ الْعَزَاءِ جَمَّ الْهُمُومُ»
(شكري، ١٩٥٨م: ١٨٥)

٤. اليأس

٤-١. اليأس عند المعري

إنَّ المعري يائس خائب، ولا يرجو خيراً في الحياة:
«من ادعى الخير من قوم فهم كُذِّبَ لا خير في هذه الدنيا ولا خير»
(المعري، ١٩٨٨م: ٥٧٨)

وهو يتردد أحياناً بين اليأس والأمل ولكنه لا يرى كبير قيمة فيهما:
«فلا تياسنَّ لليل دَجَا ولا تفرحنَّ بفجر سَطَع
ولا تحفلنَّ أ للسيب أم مع السيف قُدِّم ذاك التطلع»
(المصدر نفسه: ١٤٤)

٤-٢. اليأس عند شكري

شكري يائس خائب هو الآخر، وهو مشغول بالأحداث الأليمة عن الحب:
«وكيف يكون الحبُّ عنى راضيا وقلبي عنه بالحوادث مشغول؟!
ولا راحة في العيش ما دمت هكذا يُنَعِّصُنِي فِي الْعَيْشِ يَأْسٌ وَتَأْمِيلُ»
(شكري، ١٩٥٨م: ٩٤)

وهو يرى أنَّ الحياة مليئة بالأخطار ولا داعي فيها للتفاؤل:

«قنوع اليأس يَجدني رجائي وهَمُّ النفس داعيةَ الرخاءِ
وقد غَلَبَتْ ضُروفُ الدهرِ حزمي فجالدتُ المصائبَ بالنجاءِ»
(المصدر نفسه: ٩١)

وهو يشعر بالحسرة والحزن وغير مهياً لأسباب الفرح والنشاط لبعده عن حبيبه:
«أَعِيدْ وقلبي من رِضاكَ بعيدٌ فيا عجباً للدهرِ كيف يَكِيدُ؟!
ولكنَّ في العيدِ شجواً وحسرةً وإئسَى لِمَن يَلتذُّه لِحَسودُ»
(المصدر نفسه: ٢٥٣)

يعتقد الشاعر بأنَّ الحياة تدفع الإنسان إلى الأمل، فلا ينفعه الأمل، وتدفعه إلى اليأس
فبيأس وهو يرى نَعَمَ الدنيا مزيجاً بالحزن والأسى والإنسان متردداً بين هاتين العاطفتين:
قال داعيَ الهَمِّ قولاً صادقاً إِنَّمَا نحن عبيدٌ للمنى
عجباً للدهرِ في أحكامِهِ يَجلبُ النعمةَ في داعيِ الأسى
كما يستنتج أنَّ الإنسان خُلِقَ لكي يُصاب بالشقاء واليأس وهذه هي سنة الحياة:
«خُلِقَ الإنسانُ كي يَشقى بها يَبتنى في نيله بُرءَ الشقاءِ»
(المصدر نفسه: ١٧٥)

٥. القضاء والقدر

٥-١. القضاء والقدر عند المعري
إنَّ المعري كان يعتقد بالقضاء والقدر ويعتبر النحس والسعد مقدرين على الإنسان
ويقول بأنَّ النحوس أكثر من السعود، كما يؤكد على أنَّ الحياة كلها نحس ولا يوجد
فيها مثقال ذرة من خير:

«وإن يكُ في الدنيا سُعودٌ فأئماً تكون قليلاً كالشُدوذ الشواردِ»
(المعري، ١٩٨٨م: ٨٧)

ويرى أنَّ العلم لا يُبعد العالم عن الموت، بينما قد يسلم الجاهل منه أحياناً:
«كم سلِمَ الجهولُ من المنايا وعوجلَ بالحمامِ الفيلسوفُ»
(المصدر نفسه: ٦٢)

يعتقد المعري بأن أمورنا برمتها في يد القضاء والقدر ونحن لسنا بمخيرين، ولا يوجد في حياتنا السلام والأمن إلا وهو مقترن بالشر والفساد، والدنيا عنده مليئة بالفساد، ومن ثم يأتي بالأدلة على صحة الجبر:

«أرى شواهدَ جبرٍ لا أحققه كأنَّ كلاً إلى ما ساءَ مجرورٌ
وعالمٌ فيه أضدادٌ مقابلةٌ غنيٌّ وفقيرٌ ومكروبٌ ومقرورٌ»

(المصدر نفسه: ٥٨٥)

والإنسان لم يكن مختاراً في ولادته ولا في موته، فكيف يكون مختاراً بعد ذلك؟!!

«ما باختياري ميلادي ولا هرمي ولا حياتي فهل لي بعد تخيري؟»

(المصدر نفسه: ٥٨٨)

٥-٢. القضاء والقدر عند شكري

يرى شكري أنه مضطر للعيش وليست الحياة باختياره، ولهذا يفضل الموت على الحياة:

«ليتني متُّ قبل أن أنكر العيَّ شَ ولكنني فقَدْتُ الخِياراً
أنا في ذمَّة الزمان ولكن لا أسيغُ الحياةَ إلا اضطراراً»

(شكري، ١٩٥٨م: ٩٥)

النتيجة

ينشأ تشاؤم الشعارين المعري وشكري عن عدّة عوامل، منها: تردية الأوضاع الاجتماعية والسياسية، والمشاكل النفسية. وكان المعري يعاني أيضاً بعض العاهات الجسدية كالعمى، كما كان شكري ذا نزعة رومانسية، يغلب عليه الحزن والأسى والقلق والتشاؤم... وهناك أيضاً عواطف الشعارين المشبوبة، وحساسيتهم المفرطة، كما أنّ الشعور بالألم ترك في نفس المعري وشكري أثراً أعمق وأشدّ مما يتركه في نفوس الناس العاديين. ولاشك أنّ ظروف الشعارين الخارجية سوّغت هذا الحزن الأسود القاتم الذي شاع في أدبيهما، غير أنّه تجدر الإشارة إلى أنّ التشاؤم الموجود في أدب الشعارين لا ينشأ عن الظروف الخارجية فحسب، وإنما يعود أيضاً لمزاجهما الحزين

وتفكرهما العميق فى قضايا أساسية كالموت والحياة والجبر والاختيار و...، الأمر الذى زاد الشاعرين تشاؤماً وانطواءً على النفس، وجعلهما عزوفين عن الناس، غير راغبين فى معاشرتهم ومخالطتهم.

وقد تنوعت مظاهر التشاؤم عند الشاعرين، من خوف يرقبهما فى كل شئٍ والحظة، وسوء ظن بالناس وحتى بالنفس، وحب للموت وتفضيله على الحياة، والحديث عن خبث الحياة وغدرها وعدم جدواها واعتزال للحياة وانقطاع عن ملذاتها، واعتقاد بالقضاء والقدر، والشكوى من الزمن والتبرم بالحياة.

ويمكن القول بأنَّ لتشاؤم المعرى فى اتجاهين: اتجاه نفسى واتجاه اجتماعى، والاتجاه النفسى يتمثل فى إصابته بالعمى منذ طفولته، فموت والديه، ثم معاناته الفقر الشديد، وحبسه لنفسه فى البيت واعتزاله عن الناس. ومن المنطلق الاجتماعى عاش المعرى فى عصر كانت الحياة فيه مضطربةً أشدَّ اضطراب، وقد انعكس تردية الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى شعره.

أما التشاؤم عند شكرى فهو فى الأكثر ذو اتجاه اجتماعى؛ فهو يشكو من الفساد السياسى والاجتماعى والاقتصادى السائد وقد يشكو من جفاء الأصدقاء وغدرهم وخداعهم، فقد كانوا بالأمس أصدقاءه المقربين ولكنهم الآن قد انقلبوا عليه وتغيروا نحو الأسوأ. أضف إلى ذلك كله مزاجه الحزين وتأثره بالمدرسة الرومانسية الغربية وبعض أدباء العرب المتشائمين من أمثال المعرى هذا وابن الرومى و...، وقراءاته أيضاً فى الشعر الحيامى فى ترجمته الإنكليزية و... .

المصادر والمراجع

- ابن منظور، أبو الفضل. (٢٠٠٣م). لسان العرب. بيروت: دار صادر.
- الأصفر، عبدالرزاق. (١٩٩٩م). المذاهب الأدبية لدى الغرب. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
- أدهم، على. لاتا. «الأستاذ عبدالرحمن شكرى، لمحات عن حياته ونظرات فى شعره». مركز تحقيقات كامبيوتري علوم اسلامى. صص ١٣ - ٢٧.
- أيوب، عبدالرزاق. (١٩٩٠م). انعكاس الفكر السياسى على الأدب العربى فى العصر العباسى. لامك: دار الطلاس.

- بطرس، أنطونيوس. (٢٠٠٥م). الأدب: تعريفه، أنواعه، مذاهبه. بيروت: المؤسسة الحديثة للكتاب.
- بكار، يوسف. (٢٠٠٤م). جماعة الديوان وعمر الحيام. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- حسين، طه. (١٩٧٣م). مع أبى العلاء فى سجنه. القاهرة: دارالمعارف.
- _____ (١٩٥١م). تجديد ذكرى أبى العلاء. الطبعة الرابعة. القاهرة: دارالمعارف.
- الحلبسى، ابن العديم. (٢٠٠٧م). الإنصاف والتحرى فى دفع الظلم والتجريح عن أبى العلاء. الطبعة الأولى. دمشق: دار الجولان للطباعة.
- السميرى، جابر والطرطور، عبير سليمان محسن. (٢٠٠٩م). التطير مفهومه وآثاره وسبل علاجه. لامك: لاتا.
- الشاذلى، عبدالسلام. (٢٠٠٦م). تجربة المدينة فى الشعر العربى المعاصر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الشطى، عبد الفتاح. (١٩٩٤م). عبد الرحمن شكرى شاعراً. القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب.
- شكرى، عبدالرحمن. (١٩٥٨م). ديوان شكرى. جمعه وحققه نقولا يوسف ومحمد رجب البيومى. لامك: لاتا.
- الكعكى، ثريا. (٢٠٠٩م). التشاؤم عند عبدالرحمن شكرى. رسالة لنيل درجة الماجستير. جامعة أم القرى.
- ضيف، شوقي. (١٩٥٩م). دراسات فى الشعر العربى المعاصر. الطبعة العاشرة. القاهرة: دارالمعارف.
- _____ (لاتا). الفن ومذاهبه فى الشعر العربى. الطبعة العاشرة. القاهرة: دارالمعارف.
- عيد، رجا. (٢٠٠٣م). لغة الشعر قراءة، فى الشعر العربى الحديث. اسكندرية: منشأة المعارف جلال حزى.
- الفاخورى، حنا. (١٣٧٧ش). تاريخ الأدب العربى. طهران: توس.
- الفيروزآبادى، محمد بن يعقوب. (لاتا). القاموس المحيط. لامك: دار إحياء التراث العربى.
- المعرى، أبو العلاء. (١٩٨٨م). لزوم ما لا يلزم. الطبعة الثانية. لامك: دارالطلاس.
- نهج البلاغة. (١٣٧٧ش). ترجمة د.جعفر شهيدى. الطبعة الثانية عشرة. طهران: شركت انتشارات علمى وفرهنگى.
- ياقوت الحموى. (١٩٨٠م). معجم الأدباء. الطبعة الثالثة. بيروت: دارالفكر.
- اليجوفسى، نجوى والأنصارى، بدر. (٢٠٠٥م). «التفاؤل والتشاؤم، دراسة ثقافية مقارنة بين اللبنانيين والكويتيين». مجلة العلوم الاجتماعية. م ٣٣. ع ٢٤.
- يوسف، نقولا. (لاتا). عبدالرحمن شكرى، حياته وآثاره. لامك: لاتا.
- seligman•m.c(1994)• what you can change &what you cant. New York:knopf